هنري برغسن

ضيف العظيم اشهر فلاسفة هذا العصر

(تابع ما قبلهُ)

رأيهُ في المكوّن

فطر الانسان على تكبير وطغيان يدفعانهِ الى تحديد كل شيء بالالفاظ حتى الله جلّ جلاله . فاذكرنا فيلسوفاً الاّ ذكرنا معهُ رأيهُ في علة الكون لانهُ كما قال تنلشب (Nettleship) ان ما فيهِ الله هو اعلى واشرف واجمل مثل ترسمهُ مداركنا انسانية ومطامحنا الراقية . مثل مطلق نجعل فيهِ أعظم ما نحب ونعبد في الاشخاص وأرفع ما نعجب بهِ وتهيبهُ في الطبيعة . كأن ازلي سرمدي بلا شريك ولا منازع

تعليل العالم سهل لولا عنصر الشر فيهِ . فاوقف مفكر امام جلال الطبيعة مدركاً عظمة الكون الاّ انتبه بعد حين الى الشرور المنسابة في سبل البشر والالم الكامن في جميع الموجودات . في الكائنات الضعيفة المجاهدة ضد الكائنات القوية . في الانواع الطامعة في حفظ نفسها وارتقائها . في النبات الذي يشق وجه الارض ليبحث عن النور والحرارة . في ايذاء الانسان للانسان مرغماً او مختاراً لتنازع البقاء . ان في اعماق الآفاق الهادئة ناراً تحرق احشاء الكواكب وقوى طبيعية تعصف بالاكوان فتحطمها ويتساقط فتيلها محترقاً جوّنا بشكل النيازك . تحت كل جمال ألم هائل ووراء كل سكون وجع وجهاد كأن الالم ناموس الحياة الاوحد . فيصعب على المفكر تفسير الشر اذ لا يجري شيء في الخليقة دون ارادة الله الله الرفق والصلاح وسماحهِ . وقد كان عنصر الشر حجر عثرة في سبيل كل مذهب فلسفي وجملتهُ الاديان عقاباً على اقتراف الآثام

يتجنب برغسن هذا الموضوع ما استطاع بازاء الغريزة الحيوانية منزلة الغاية العقلية في قلب الاشياء فيقول في كتابهِ « النشوء الابداعي » (Evolution Creatrice) « ليس الارتقاء حركة اندفاع الى الامام فحسب بل كثيراً ما يكون لحظات جمود ظاهري وقد يكون انحرافاً والتواء وتقهقراً الى الوراء . ويجب ان يكون الامر كذلك »

يعترف بالله حرّ مبدع الحياة والمادة وقوة ابداعه متواصلة نحو وجهة حيوية بترقية الانواع وتنظيم الشخصيات البشرية . وهو اكثر من قوة كامنة في الطبيعة لانهُ متحدٌ بها اتحاداً كليًّا وهو الاصل الذي تصدر منهُ جميع الامور حسنة كانت او غير حسنة

احتجاج برغسن على القدرية والجبرية شديد . وعندهُ انا اذا رسمنا لنفسنا خطة قيدنا حريتنا وحددنا ارتقاءنا . ولئن كانت نظريتهُ في الالوهية غير متينة ولا نهائية فانهُ يصفها بعبارات سامية جليلة ومعانٍ فخمة بديعة لم يستعملها قبلهُ أحد كقولهِ ان الله البحر الذي نسبحُ فيهِ وتغمرنا امواجهُ من كل صوب . هو الحياة التي نحيا بها ونتحرك فيها ويخفق قلبنا الصغير في قلبها الكبير وتكون ذواتنا من غمر نعمها . هو الفيض الشامل الذي لا ينقطع تدفقهُ والحقيقة الواحدة التي تتغذى ارواحنا بتشعمها الخالد . وبينا هو يعظم الله بهذه العبارات اذ هو يظهر العلاقة الضيقة الشديدة بينهُ وبين الانسان بين منهل الروح الاسمى وقطرة الشخصية البشرية

الحياة والمادة

لقد كان مشهد الشر في كل مكان باعثاً على تأليف مذاهب الثنوية (Dualistes) القائلة بتوتين قوة الخير وقوة الشر عنصر النور وعنصر الظلام أهورا مزدا وأهرمان الله والشيطان . واذا كانت نظريةُ الالوهية عند برغسن غير مرتبة تمام الترتيب فان فكرة الاثنينية واضحة كل الوضوح بل متررة ثابتة وهي عندهُ النزعة الحيوية (Elan vital) والمادة

ما هي نسبة الحياة الى المادة ؟ على النسبة المميزة بينهما أقام برغسن نظريتهُ في الزمن وحرية الارادة . فالحياة او النزعة الحيوية حرية والمادة ضرورة او اقتضاء (Necessity) . النزعة الحيوية ديمومة والمادة جمود . وكل ما يقيد العالم الحيوي من نظام آلي (mechanism) وتحديد (finalism) يتفت منهُ العنصر الحيوي . فالعقل المادي من طبعهِ والذي قد اعتاد أساليب المادة جعل الحياة آلية وحدد الحرية بالمادة لانهُ لا يدرك الا المحسوس . ولكن لنطرحن عنا الصور العقلية محاولين ادراك الحياة بالبداهة نجد ان ماهية الحياة هي الحرية بعينها

تسعى النزعة الحيوية الى التغلب على تصلب القوى المادية وتحتاج للفوز بغايتها الى مساعد لا يمكنها ابداعه فتستعمل مكانه نفس القوة الكامنة في المادة. ولولا المادة ما استطاعت الحياة القيام بوظيفتها ولا هي تظهر في الانواع والافراد الا بمقاومة تلقاها من المادة التي بدونها لا اقتدار للحركة على الانطلاق. فالمادة اذاً التي تعترض دون تدفق الحياة هي هي الشرط اللازم لبروزها وهي ميدان ارتقائها

أبدأ تبحث النزعة الحيوية عن منفذ تبدو منهُ واسلوب مألوف في النظام الطبيعي تفصح بهِ عن مرادها وابداً تعترضها المادة بما فيها من قوة الجمود والتصلب. وكل خطوة امامية للنشوء والارتقاء انتصار تتغلب بهِ الحياة على المادة. كأن جوهر هذا الذهب هو ان العنصر الاولي المحرك هو الحياة يقابلها عنصر اولي محرك هو المادة

النشوء والارتقاء

لم يفكر احدٌ قبل برغسن في تطبيق مذهب النشوء والارتقاء على عالم الروح ولم يكن يُظن جارياً في غير عالم المحسوسات. المادة هي الشيء الوحيد الممكن تحديده بالالفاظ العلمية كما انها الصورة الوحيدة التي تحل فيها الحقيقة الملائمة لادراكنا. والعقل الذي ننظم بهِ حياتنا نتيجة النشوء المبدع وصيغة من صيغ الاندفاع الحيوي (Impulsion vitale) المعبّر عن نفسهِ بتتابع الابداع

بدأ برغسن بنقض مذاهب الجبريين (finalistes) والآليين (mechanisme) وانكر مذهب العقليين الذي يسند للادراك البشري قوة ليست فيهِ ثم فسر الحياة والارتقاء بالنزعة الحيوية. فقال ان مجرى الحياة الذي تولّد في حين ما يخترق الاجسام التي نظمها بالتعاقب مارًّا من ذرية الى اخرى. يخترقها لا ككرة محشوة يقذف بها المدفع فيكون اتجاهها واحداً بل كقنبلة تفجرت منها الشظايا فانطلقت كل شظية في سبيلها غير المعين لتتوزع على الانواع وتتبعثر فيها. واذا عثرت على موانع في طريقها فلا تفقد من قوتها شيئاً بل تتحول بها الى جهة اخرى. ف الارتقاء الا اثر القوة السرية التي سماها « النزعة الحيوية » او « النزعة الاصلية » وعنده ان النشوء لا يسير طبق خطة مرسومة بل هو ابداع حرٌّ متواصل التجدد يظل بهِ المستقبل وما يضمره من الممكنات مفتوحاً امامنا

رأيه في الحرب

ما حياة الفرد في نظرنا القصير الاَّ تعاقب ولادة وموت . وما حياة الجنس الاَّ تتابع الاجيال لتجديد دوران الاحقاب. والدوري كالافراد لا تبتدىء حيث انتهى الآخرون بل في نقطة كانوا عندها بادئين . وما التاريخ الاَّ سلسلة حروب طويلات والشعب الذي لا حروب لهُ لا تاريخ لهُ

اما في نظر الفيلسوف فالحياة تكوّن نفسها بانتقالها من افراد الى افراد وتحوّلها من اجيال الى اجيال . وما الحروب على هولها والتواريخ على تعدُّدها الاَّ تاريخ لشوء الحياة وارتقائها

لم يرَ عصرٌ قبل عصرنا ما شهدناهُ من تفوُّق الفكر في كبح قوى العناصر حتى صارت طوع يدنا واصبحت عجائب الامس مبتذلة اليوم . لكن لا سرور بتلك الاختراعات ولا فخر لانها مصوَّبة جميعاً ضد الحياة التي اكسبتها الحياة . وما الكابوس الضاغط على الافكار في هذه الاعوام ناتج عن فظائع الحرب او عن الاثبات المحزن بانها اشدُّ بطشاً واسرع فتكاً من حرب المخالب والبراثن لانها حرب العقل والعلم اذ لا بد ان تنتهي هذه الحرب يوماً فتكون الغلبة في جانب احد الفريقين او يكون انكال والفنى عند كليهما . انما الكابوس هو حكم الفلسفة المنبثة بان كل ذلك ضرورة بيولوجية وناموس ارتقاء لا تفلت منهُ

خطب برغسن سنة ١٩١٥ في موضوع الحرب فسرها بالنظرية التي هي دعامة مذهبهِ . الحياة والمادة في حربٍ مستمرة فاذا تعدنا بفطنتنا الى ما وراء ما نشر من الاسرار في هذه المفجعة الشعواء وراء المواقع الكبرى وحرب الخنادق اليومية وجدنا الحرب الدائمة التي لا ينقطع اتصالها لانها عنصر الحياة بعينهِ . ويقول ان فلاسفة الالمان اقنعوا ابناءهم وطلبتهم بتلك المبادىء فاتخذت المانيا العسكرية لنفسها دور المادة ضاربةً صفحاً عن القوة الحيوية . دور المادة التي تكافح الحياة وتود تحطيمها بدلاً من ان تكون لها مساعداً على البروز والتعبير عن نفسها

ويرى ان الفوز النهائي للحلفاء اذ يقول : « في امكان الحياة ابداع قوًى حديثة تقمع بها الآلات الفتاكة والحلفاء محاطون بنظام آليٍّ عنيد مدبرٍ باتقان والغرض منهُ كسرهم والتغلب عليهم . وذلك عمل المادة ساعة تعترض النزعة الحيوية

في اندفاعها . لكنّ الاعداء لا ينالون مرامهم لان لدى الحلفاء القوة المبدعة قوة الحياة التي تنازع المادة طويلاً فتكون لها الغلبة دائماً . نعم ان عند الاعداء مثل هذه القوة لكنهم انكروها بانقيادهم اوجاه والاتكال على نظامهم العسكري وما يعضده من آلات وسواه . فهم يحاربون للسيادة والاستعباد بينما الحلفاء يحاربون لتحرير انفسهم وتحرير غيرهم . وذلك شأن الحياة في حربها مع المادة . وما هذه الحرب الدولية الكبرى الاّ مظهر ضئيل من اهم شرط من شروط الوجود وهو حرب الحياة والمادة الخالدة »

العقل والبداهة

دعي برغسن « فيلسوف البداهة » وهذه اهم نقطة من مذهبه . انما شرف كنت الالماني قائم باثباته قصر العقل البشري وعجزه عن الوصول الى الحقيقة في ذاتها فلا يدركها الاّ نسبية حسب اقتداره الضعيف . لكنّ برغسن ذهب الى ابعد من ذلك فزاد في تضييق تلك الدائرة دائرة النسبة التي رضي بها كنت فانكر على العقل حتى امكان معرفة الشيء معرفة نسبية حقيقية

اصل هذه النظرية هي التمييز بين الزمن المكاني (Temps Spatial) والديمومة السيكولوجية (Durée Psychologique) فيقول ان وقت التأمل الهادىء لا يشبه وقتاً يعجّله ويدفعه الانفعال او يطيله الالم . اما زمن الساعات زمن التسوية والتعديل فلا يقاس به زمن عواطفنا المتغيرة الاّ بحكم العادة والاتفاق وحركته الآلية المصطنعة لا تشبه حركة افكارنا واحساساتنا التي نحياها ونكاد نلمسها في داخل ضميرنا الاّ بالاسم

يعتبر العقل أثمن قوة حصل عليها الانسان الى الآن لان به تتوفق الحقيقي الحاضر غير ان خبرات العقل وادراكاته تعجز عن القبض على اصول الحياة لانه من غير نوعها فهي لا ترى شيئاً من الحركات الجاريات في اعماق النفس المظلمة . العقل يدرك الماضي المنقضي لانه صار بحدوثه مادة من نوعه فيمكنه تقريره بالكلام والتثبت منه بادلة الحواس لكنه يجهل الصيرورة (le devenir) التي تدفعنا الى الامام وهي من محفوظات البداهة . فلا نتوصل الى لمس الحقيقة الاّ بسيرنا مع السيل الحيوي وبالبداهة والشعور والانعطاف والحاسة

يرى في طريق العقل عقبات كثيرة وحواجز يرتد عنها كليلاً وفي وسع البداهة التغلب عليها اذا استعان بها . اذ ذاك يستطيع العقل تعيين ادراكات البداهة بالكلام موضحاً النظريات والمقاصد التي تتفرد هي باكتشافها . وهذا يذكرنا برأي برغسن سبق تلخيصهُ في هذه النظرة السريعة في مذهبهِ . اعني رأيهُ في العلم والفلسفة . يرى ان تسبق الفلسفة العلم الى حيث يتبعها العلم بعد حين كذلك يقدّم البداهة على العقل مشيراً عليهِ بتتبع خطاها . وما البداهة الا الغريزة اذا ارتقت في الانسان

ولهُ يبدّد النظرية الافلاطونية القائلة ان المحسوسات ليست الا انعكاس الفكرات (Idées Platoniques) الضئيل وينكر على المنطق دعواهُ في السيطرة على الفكر مقتدراً ما يأتي منهُ من امر ونهي فيما يتعلق بالحياة الداخلية . ويأبى الرضى بالعقل حكماً لتقرير ما يجب وما لا يجب ان يكون . لان المنطق العقلي لا يقوم مقام الخبرة الشخصية الداخلية الأكيدة ولا يقوى على امكانات صوت البداهة . ومن اقرب الشواهد على ذلك ان جميع الاثباتات الجدلية والبراهين العقلية والمقاييس المنطقية لا تكفي لدحض الاعتقادات الدينية مهما امتزجت بها الخرافات امتزاج الذهب بالرمل والعلصان

ويكفي النظر الى وظيفة العقل وتقدير نتائج عملهِ لنعلم انهُ مساوٍ للغريزة او البداهة . فهو يهتم بتكييف المعلومات ومعالجة الجوامد واستنباط الآلات وما هو على هواهُ الا امام الاشياء الميتة التي يخلق لها وجوداً آلياً . غير ان الغريزة تفصح عن نفسها بوجودها الآلي ولو عرفنا ان نسألها واستطاعت الجواب لافضت الينا باعظم اسرار الحياة واغرها . ولما كان اتجاه البداهة نحو الحياة واتجاه العقل نحو المادة كان تعاون الاثنين ضرورياً للسعي الى ادراك سر الحياة والتعبير عنهُ . فعلى البشرية ان تنقلب عائدة الى ملتقى السبل الذي افترقت فيهِ الدوتان فيعتمد العقل البداهة بدلاً من ان يحتقرها . وها تاريخ الفن والادب والعلم نفسهُ شاهد على دور مجهول مثلتهُ البداهة يوم أفسح لها المجال فكانت مساعدة العقل لا عدوتهُ

ما الانسانية الكاملة الا انسانية وصل منها البداهة والعقل الى اعلى درجة

ممكنة من النمو . وما الانسانية اليوم عند هذه الخطوة الحاسمة من سبيلها الا لان سراج البداهة خبا تحت اثقال الدهور . فاذا شعّ في أثناء الوقت بعد الوقت فهو لا يضيء الا لحظات قليلات ولا يقوى على انارة غير جزء صغير من ظلمات المادة المتراكمة حوله

الكلمة الاخيرة لم تُقَل بعد

جوهر هذا المذهب محصور في مؤلفات برغسن الكبرى الثلاثة وتفسيره مبعثر في مئات المحاضرات والمقالات . يرى فيه الناقدون تناقضاً كثيراً لكن الآراء العصبية العنصرية لا تنقض نظريته في اندفاع النزعة الحيوية التي هي قاعدة هذا المذهب . ولئن شغل كثيراً عما وراء المحسوس فلهُ كذلك اهتمام بالحياة العملية ولا يستطيع بعد ذلك الاهتمام في مصلحة المذهب ذاته وهذا سبب فوزه الشامل

يقول برغسن ان هذا المذهب يرمي الى استيعاب العقل في البداهة لحذف نقط الصعوبات العقلية من جهة وزيادة الرغبة في العمل وتقوية الحب للحياة من جهة اخرى . لكن أين العالمُ الاجتماعي الذي يتسنم المجازفة بكل ما لدى البشر من الخبرات العقلية والنتائج الآلية لتطبيق الارتقاء والسعادة على قواعد المذهب البرغسي المهيب بجلاله النظري وجماله التركيبي لكن القاصر دون حماية مطالب الحياة العملية وشؤونها

على ان هناك امراً لا جدال فيه وهو ان العقل [illegible] يستطيع ان يضمن السعادة وصرنا بفضل برغسن مدركين قيمة هذه الالاهة (البداهة) الكامنة فينا شاعرين بعذوبة بسمتها في اعماق النفوس معترفين بفائدة اشتراكها مع العقل في تدبير شؤون الحياة والسعادة

جميع نظريات برغسن لم تطبع بالطابع النهائي ولم يقُل بعد في مذهبه الكلمة الاخيرة لانهُ ما فتئ شاباً في زهرة شبابه الفكري

اهلاً بالضيف الكريم

دعي برغسن قبل الحرب بشهور قليلة الى الولايات الاميركية المتحدة لالقاء سلسلة محاضرات في شرح مذهبه فلقي بترب بعض الناقدين جمهوراً كبيراً يتحمس

لهُ ويحرق اعجابهُ بخوياً امامهُ . وزار اسبانيا بعد اشهار الحرب فنازعت نخبة حزب الكاثوليسيين من غير اعداء الالمان الى الذهاب لاستماع كلامهِ فما وسع اسبانيا المصغية الاَّ انحناء الجبهة امام فرنسا الفكرية . واليوم انبأتنا الاخبار ان برغسن سيمر في رجوعهِ عما قليل في ذهابهِ الى القدس الشريف حيث يدرِّس الفلسفة في الجامعة اليهودية المنتظر انشاؤها . فما اليق هذا المكر الراقي بالكنى بين جدران المدينة العظيمة .

موقفنا العلمي بين الشعوب متواضع لكن البداهة الشرقية منا ظاهرة قوية لم تنل منها يد المادة الاَّ قليلاً . فتلك البداهة ترحب بفيلسوف البداهة النازل في شرقنا الادنى دارساً اكثر منهُ مدرِّساً . سيلقي على تلاميذهِ دروساً بالكلمات البشرية الصميمة لكنهُ سيستخرج اشواقهُ من كل ما يزاد ويسمعهُ ويشعر بهِ تحت سمائنا الوضاحة . وعسى ان يناجيهُ همس الوحي ليزيد في مذهبهِ ثروة وجمالاً . فمن جوِّنا الصامت تهيباً لاصوات ارجع ماضيهِ صداها ومن عيون الكواكب الساهرة في افقنا لمراقبة حوادث التاريخ المتقلبة دهراً بعد دهر ومن اخربة هياكلنا ومعابدنا حيث تتهادى خيالات احلام من كان من الآلهة مجموعاً ومن اراضينا التي غذَّت الجبابرة والابطال والجبابرة وما فتئت تدرُّ لبناً وعسلاً ومن مياه انهارنا وعيوننا التي سقت المشترعين والرسل والانبياء — من كل ذرة من ذرات بلادنا ينبعث صوت يتردد دوياً في نفس الفيلسوف صوت تتوق بلاغتهُ بلاغة كل بيان بشري

أيهودي برغسن ؟ قد يكون يهودياً بمولدهِ . لكننا نعلم انهُ ارتفع بتأمله الى ما فوق تنوع العقائد وتعدد المذاهب فصار من الذين اذا بحثوا عيروا الى ما وراء والاجناس والطوائف والاحزاب والتفتوا الى ما وراء مفجعات الحرب ومضحكات الصلح الى نقطة النور التي يصير فيها النوع الانساني جسماً عظيماً واحداً ذا قلب واحد كبير ينبض فيهِ خفيف الافلاك الدائرة في ابراجها

(مي)